2020
2.1.2020

جورج آر آر مارتن

تنِّين الجليد

ترجمة: هشام فهمي



جورج آر آر مارتن

تنِّين الجليد

رواية

ترجمة

هشام فهمي



تنّين الجليد

الكاتب: جورج آر آر مارتن

عنوان الكتاب: تنّين الجليد

ترجمة: هشام فهمي

تصميم الغلاف: ناصر العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-36-6

الطبعة الأولى - سبتمبر / أيلول - 2019

1000 نسخة

Published by agreement with the The Lotts Agency, Ltd



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

publishing@takweenkw.com — takweenkw

www.takweenkw.com — @takweenKw

إلى فيپس،

التي فكّرت في هذه القصّة أولاً،

مع خالص حبّي

الفصل الأول

طفلة الشِّتاء

أحبَّت آدارا الشِّتاء أكثر من سائر الفصول، فحين يحلُّ البرد على العالم يأتي تنِّين الجليد.

لم تعلم يقيناً قَطُّ إن كان البرد يحثُّ تنِّين الجليد على المجيء أم أن تنِّين الجليد هو ما يجلب البرد. سؤال كهذا ينتمي إلى صُنوف الأسئلة التي كثيراً ما تشغل بال أخيها جف، الذي يكبرها بعامين ويتَّسم بفضوله الجارف، أمَّا آدارا فلا تُبالي بتلك الأشياء، وما دامَ البرد والثَّلج وتنِّين الجليد يأتون في موعدهم المحدَّد فهي سعيدة.

دائماً تعرف متى يصلون بسبب عيد مولدها. آدارا من أطفال الشِّتاء، وُلِدَت في أثناء أسوأ فترة تجمُّدٍ يَذكُرها أحد، حتى العجوز لورا التي تعيش في المزرعة المجاورة وتتذكَّر أحداثاً وقعَت قبل أن يُولَد أيٌّ من الآخَرين. ما زالَ النَّاس يتكلَّمون عن ذلك التَّجمُّد، وغالباً ما تسمعهم آدارا.

يتكلَّمون عن أشياء أُخر أيضاً. يقولون إن برودة ذلك التَّجمُّد الرَّهيب هي التي قتلَت أمَّها، تسلَّلت خلال ليلة مخاضها

الطَّويلة متجاوزةً النَّار المتأججة التي أشعلَها أبو آدارا، وزحفَت تحت أكوام الأغطية التي غطَّت فِراش الولادة. ويقولون إن البرد دخل آدارا وهي في الرَّحم، إن بشرتها كانت زرقاء شاحبةً ولها ملمس الجليد حين خرجَت إلى العالم، وطيلة السِّنين التي مرَّت منذ ذلك الحين لم تعرف الدِّفء. لقد مسَّها الشِّتاء وتركَ عليها علامته، جعلَها له.

صحيحٌ أن آدارا كانت دوماً طفلةً تُؤثِر الانعزال. إنها فتاة صغيرة جادَّة للغاية، نادراً ما تُلقي بالاً للَّعب مع الآخَرين. يقول النَّاس إنها جميلة، إلَّا أن جمالها غريب غير مألوف، ببشرتها الشَّاحبة وشعرها الأشقر وعينيها الزَّرقاوين الواسعتين الصَّافيتين. تبتسم آدارا، ولكن ليس كثيراً، كما أن أحداً لم يرَها تبكي من قبل على الإطلاق. عندما كانت في الخامسة داسَت مسماراً مغروساً في لوحٍ خشبي وارَته كومة من الثُّلوج، ونفذَ المسمار من أخمص قدمها إلى النَّاحية الأخرى، لكن حتى وقتها لم تبكِ آدارا أو تَصرُخ، بل خلَّصت قدمها وسارَت عائدةً إلى المنزل مخلِّفةً وراءها أثراً من الدَّم على الثَّلج، ولمَّا وصلَت لم تقل إلَّا: «أبي، لقد جرحتُ نفسي».

عبوس الطُّفولة التَّقليديَّة وغضبها ودموعها أشياء ليست لها.

حتى أسرة آدارا تعلم أنها مختلفة. أبوها رجل ضخم خشن كالدِّببة، لا يكترث كثيراً للنَّاس بشكلٍ عام، لكن ابتسامةً ترتسم دائماً على وجهه حين يُلقي جف عليه الأسئلة، ويُغدِق بالأحضان والضَّحك على تِري، أخت آدارا الأكبر ذات الشَّعر الذَّهبي والنَّمش،

التي تُغازِل جميع الفِتية المحليِّين بلا حياء. بين حينٍ طويل وآخَر يحتضن أبوهم آدارا أيضاً، ولكن في وقت الشِّتاء الطَّويل فحسب، وعندها لا يبتسم لها، بل يكتفي بتطويقها بذراعيه، ويضمُّ جسدها الصَّغير إليه بشدَّةٍ بقوَّته العاتية، ويُجهِش ببكاءٍ عميق في صدره، وتسيل قطرات الدُّموع الكبيرة على وجنتيه المحمرَّتين. أمَّا في الصَّيف فلا يحتضنها أبداً، ففي الصَّيف يكون مشغولاً للغاية.

في الصَّيف ينشغل الجميع باستثناء آدارا. يعمل جف مع أبيه في الحقول ويُلقي أسئلةً بلا نهاية عن هذا وذاك، ليتعلَّم كلَّ ما على المُزارِع أن يتعلَّمه، وفي الأوقات التي لا يعمل فيها يهرع مع أصدقائه إلى النَّهر ويخوض مغامرات، في حين تُدير تِري المنزل وتطهو، كما تعمل قليلاً في الخان الواقع على مفترَق الطُّرق خلال الموسم المزدحم. ابنة صاحِب الخان صديقتها، وأصغر أبنائه أكثر من صديق، ودائماً تعود تِري من هناك ضاحكةً وحاملةً مختلِف حكايات النَّميمة والأخبار من المُسافرين والجنود ورُسل الملك. بالنِّسبة إلى تِري وجف الصَّيف أحلى الأوقات، وفيه ينشغل كلاهما تماماً عن آدارا.

وأبوهم أكثرهم انشغالاً. كلَّ يومٍ عليه أن يفعل ألف شيء، وحين يَفرُغ يجد ألف شيءٍ آخَر يفعله. يعمل من الفَجر إلى الغسق، وفي الصَّيف تنمو عضلاته وتقوى، وكلَّما عادَ من الحقول تصحبه رائحة العَرق الفوّاحة، لكنه يَدخُل المنزل مبتسماً دوماً. بعد العشاء يجلس مع جف ويحكي له قصصاً ويُجيب عن أسئلته، أو يُعلِّم تِري أشياء لم تكن تعرفها عن الطَّبخ، أو يذهب إلى الخان. إنه رجل الصَّيف حقّاً.

لا يشرب أبو آدارا في الصَّيف أبداً، باستثناء كوبٍ من النَّبيذ بين الحين والآخَر احتفالاً بزيارات أخيه.

وهذا سبب آخَر لحُبِّ تِري وجف للصَّيف، حين يكون العالم أخضر حارّاً ويتفجَّر بالحياة، ففي الصَّيف فقط يأتي العمُّ هال -أخو أبيهم الصَّغير- لزيارتهم. هال راكبُ تنِّين في خدمة الملك، رجل طويل نحيل له ملامح النُّبلاء. لا تطيق التَّنانين البرد، وهكذا حين يحلُّ الشِّتاء يطير هال وسِربه جنوباً، لكنه يعود كلَّ صيفٍ وقد بدا بهيَّ المظهر في ثوب رجال الملك الرَّسمي بلونيه الأخضر والذَّهبي، ويكون في طريقه إلى ساحات القتال المحتدم في جهتَي الشَّمال والغرب من مزرعتهم.

طيلة حياة آدارا، والحرب مشتعلة.

متى جاءَ هال إلى الشَّمال جلبَ معه الهدايا؛ ألعاباً من مدينة الملك، وجواهر من البلّور والذَّهب، وحلوى، ودائماً ما يجلب زجاجةً من النَّبيذ غالي الثَّمن يتقاسَمها مع أخيه. يبتسم هال لِتِري ويجعل وجهها يتورَّد خجلاً بمُجاملاته، ويُسلِّي جف بحكاياتٍ عن الحرب والقلاع والتَّنانين، أمَّا آدارا فيُحاوِل دائماً أن يظفر بابتسامةٍ منها، فيُلاطِفها بالهدايا والدُّعابات والأحضان، لكنه نادراً ما يُفلِح.

على الرغم من طباعه الطيِّبة لا تحبُّ آدارا هال، فحين يكون هال هنا فمعنى هذا أن الشِّتاء بعيد.

ثم أنّها ما زالَت تَذكُر ليلةً لَمَّا كانت في الرَّابعة لا أكثر وحَسِباها غابَت في النَّوم قبل فترةٍ طويلة، وسمعَتهما مصادفةً يتكلَّمان. كان

هال يقول: «يا لها من صغيرةٍ كئيبة. المفترَض أن تكون ألطف معها يا جون. لا يُمكنك أن تلومها على ما حدثَ».

ردَّ أبوها بصوتٍ أثقلَه الشَّراب: «حقّاً؟ نعم، أظنُّ هذا. لكن الأمر صعب. إنها تُشبِه بِث لكنها لا تتمتَّع بشيءٍ من دفئها. إن الشِّتاء في داخلها كما تعلم. كلَّما لمستها شعرتُ بالبرد وتذكَّرتُ أن بِث ماتَت من أجلها».

- «أنت بارد معها، ولا تحبُّها كما تحبُّ الاثنين الآخَريْن».

تَذكُر آدارا الطَّريقة التي ضحكَ بها أبوها حينئذٍ، وقال: «أحبُّها؟ آهٍ يا هال. لقد أحببتها أكثر من الجميع، ابنتي طفلة الشِّتاء تلك، لكنها لم تُبادِلني الحُبَّ قَطُّ. ليس في قلبها شيء لي، أو لك، أو لأيٍّ منا. إنها فتاة صغيرة باردة»، ثم انفجرَ أبوها في البكاء، على الرغم من أن الوقت كان صيفاً وأن هال معه. في فِراشها أصغَت آدارا وتمنَّت أن يرحل هال. في ذلك الحين لم تفهم كلَّ ما سمعَته، لكنها تذكَّرته، ولاحقاً فهمَت.

لم تبكِ آدارا في سنِّ الرَّابعة حين سمعَت، ولا في سنِّ السَّادسة حين فهمَت أخيراً. بعد أيامٍ قليلة غادرَ هال، ولوَّح له جف وتِري بحماسةٍ حين مرَّ سِربه من فوقهم، ثلاثون تنِّيناً عظيماً في تشكيلٍ فخور تحت سماء الصَّيف، فيما شوهدَت آدارا ويداها الصَّغيرتان إلى جانبيها.

الفصل الثَّاني

أسرار في الثَّلج

ابتسامات آدارا مخزون سرِّي لا تُنفِق منه إلَّا في الشِّتاء. كانت بالكاد تطيق انتظار حلول عيد مولدها وأن يحلَّ معه البرد، ففي الشِّتاء تكون طفلةً متميِّزةً.

تعلم هذا منذ نعومة أظفارها، حين كانت تلعب مع الآخَرين في الثَّلج. لم يُزعِجها البرد قَطُّ كما يُزعِج جف وتِري وأصدقاءهما، وكثيراً ما تبقى آدارا وحدها في الخارج لساعاتٍ بعد فرار الآخَرين إلى منازلهم سعياً إلى الدِّفء، أو هرعهم إلى العجوز لورا ليتناوَلوا حَساء الخضراوات السَّاخن الذي تحبُّ طهوه للأطفال. تجد آدارا مكاناً سرِّيّاً في رُكن الحقول البعيد، مكاناً مختلفاً كلَّ شتاء، وهناك تبني قلعةً بيضاء عاليةً. تُسوِّي الثَّلج في مكانه بيدين صغيرتين مكشوفتين، وتُشكِّله صانعةً أبراجاً وشُرفاتٍ كتلك التي في قلعة الملك في المدينة ويحكي هال عنها كثيراً. تكسر كُتل الجليد المتدلِّية من فروع الأشجار الخفيضة، وتستخدمها لعمل قمم الأبراج والخوازيق ونقاط الحراسة، موزِّعةً إياها جميعاً في أنحاء القلعة.

ومرَّاتٍ كثيرة في قلب الشِّتاء يأتي ذوبان وجيز يتبعه تجمُّد مفاجئ، وبين عشيَّةٍ وضُحاها تتحوَّل قلعتها الثَّلجيَّة إلى جليد وتُصبِح صُلبةً قويَّةً كالقلاع الحقيقيَّة في مخيِّلتها. طوال الشِّتاء تبني قلعتها دون أن يدري أحد، غير أن الرَّبيع يأتي دوماً، ومعه ذوبان لا يتبعه تجمُّد، وعندها تذوب المتاريس والأسوار جميعاً، وتبدأ آدارا تعدُّ الأيام حتى يحلُّ عيد مولدها من جديد.

نادراً ما تخلو قلاعها الشَّتويَّة، فمع باكورة الصَّقيع كلَّ عامٍ تزحف سحالي الجليد خارجةً من جحورها، وتجتاح تلك المخلوقات الزَّرق الضَّئيلة الحقول، تندفع في هذا الاتِّجاه وذاك، وقد بدا أنها تكاد لا تلمس الجليد مع انزلاقها السَّريع عليه. يلعب كلُّ الأطفال بسحالي الجليد، لكن الآخَرين خُرق قُساة، فيقصمون الحيوانات الصَّغيرة الهشَّة أنصافاً، يكسرونها بين أصابعهم كأنهم يكسرون كُتلة جليدٍ تتدلَّى من سطح منزل، وحتى جف الأكثر رأفةً من أن يفعل شيئاً من ذلك القبيل ينتابه الفضول أحياناً، فيحمل السَّحالي فترةً طويلةً في محاولةٍ لفحصها، وتجعلها حرارة يديه تذوب وتحترق وأخيراً تموت.

أمَّا يدا آدارا ففاترتان رقيقتان، وتستطيع أن تحمل السَّحالي كما شاءَت دون أن تُؤذيها، وهو ما يجعل جف دوماً يمطُّ شفتيه استياءً ويُلقي أسئلةً غاضبةً. أحياناً تتمدَّد في الثَّلج البارد الرَّطب وتَترُك السَّحالي تزحف على جسدها كلِّه، وتتلذَّذ بلمسة أقدامها الخفيفة وهي تنزلق على وجهها، وأحياناً تُخبِّئ بعض سحالي الجليد في شعرها فيما تُؤدِّي واجباتها، وإن حرصَت دوماً على عدم دخول

المنزل بها، خشية أن تَقتُلها حرارة النَّار. وهكذا تمتلئ القلاع التي تُشيِّدها بالملوك وأفراد الحاشية كلَّ شتاء؛ مخلوقات صغيرة ذات فروٍ تتسلَّل خارجةً من الغابة، وطيور شتويَّة ذات ريشٍ أبيض شاحب، ومئات ومئات من سحالي الجليد المتلوِّية المتغالبة، سحالي باردة وسريعة وسمينة. راقَت سحالي الجليد آدارا أكثر من أيٍّ من الحيوانات الأليفة التي ربَّتها أسرتها على مرِّ السِّنين.

لكن ما أحبَّته حقاً هو تنِّين الجليد.

لا تدري متى رأته أول مرَّة، ويبدو لها أنه كان جزءاً من حياتها على الدَّوام، طيفاً لمحَته في عُمق الشِّتاء يُحلِّق في زمهرير السَّماء بجناحين أزرقين صافيَيْن. لطالما كانت تنانين الجليد نادرة، حتى في تلك الأيام، وحين يُرى أحدها يظلُّ الأطفال يُشيرون متعجِّبين، فيما يُتَمتِم الكبار ويهزُّون برؤوسهم، فعندما تظهر تنانين الجليد في الأنحاء فهذا نذير بشتاءٍ طويل قارس. يقول النَّاس إن تنِّين جليدٍ شُوهِدَ طائراً أمام وجه القمر ليلة ميلاد آدارا، وقد شُوهِدَ مجدَّداً كلَّ شتاءٍ منذ ذلك الحين، وكانت تلك الأشتية سيِّئةً بحق، وفي كلِّ عامٍ يتأخَّر مجيء الرَّبيع. وهكذا يُشعِل النَّاس النَّار ويُصلُّون ويأملون أنْ يُبعِدوا تنِّين الجليد عنهم، ويُفعِم آدارا الخوف.

لكن شيئاً من هذا لم ينجح، وفي كلِّ عامٍ يعود تنِّين الجليد، وتعلم آدارا أنه أتى من أجلها.

تنِّين الجليد كبير الحجم، أكبر نصف مرَّةٍ من التَّنانين الحربيَّة ذات الحراشف الخضراء التي يطير بها هال ورفاقه. كانت آدارا قد سمعَت

أساطير عن تنانين شرسة أضخم من الجبال، لكنها لم ترَ واحداً منها قَطُّ. تنِّين هال كبير بما فيه الكفاية قطعاً، يَبلُغ خمسة أضعاف الحصان حجماً، لكنه صغير مقارنةً بتنِّين الجليد، وقبيح كذلك.

لون تنِّين الجليد أبيض بلَّوري، تلك الدَّرجة من البياض شديدة النُّصوع والبرودة حتى أنها تكاد تبدو زرقاء، وجسمه مغطًّى بالصَّقيع الأبيض الهش، ولذا عندما يتحرَّك يتكسَّر جِلده ويُطقطِق كقشرة الثَّلج حين يخطو فوقها شخص بحذائه، وتَسقُط منه رقاقات من الجليد.

وعيناه صافيتان وعميقتان وجليديَّتان.

وجناحاه هائلان شبيهان بجناحَي الوطواط، لونهما أزرق باهت شِبه شفَّاف، وعبرهما يُمكن لآدارا أن ترى السَّماء، وفي أحيانٍ كثيرة القمر والنُّجوم أيضاً، عندما يدور الوحش في حلقاتٍ مجمَّدة في أرجاء السَّماء.

وأسنانه صفٌّ ثلاثي من كُتل الجليد المدبَّبة، حراب محزَّزة ليس لطولها مثيل، بيضاء في حلقه الأزرق العميق.

حين يخفق تنِّين الجليد بجناحيه تهبُّ الرِّيح الباردة وتدور دوَّامات الثَّلج العنيفة ويبدو العالم كأنه ينكمش ويرتعش. أحياناً عندما ينفتح باب ما في برد الشِّتاء وقد دفعَته هبَّة ريحٍ مفاجئة يُسارِع صاحِب المنزل بإغلاقه قائلاً: «ثمَّة تنِّين جليد يطير على مقربة».

ولَمَّا يفتح تنِّين الجليد فاه العظيم ويزفر، فما يَخرُج منه ليس ناراً،

ليس الكبريت الحارق كريه الرَّائحة الذي تُطلِقه التَّنانين الأقلُّ شأناً.

تنِّين الجليد ينفث البرد.

عندما ينفث يتكوَّن الجليد، ويفرُّ الدِّفء، وتتذبذَب النِّيران وتنطفئ وقد أذبلَ زهرتها البرد، وتتجمَّد الأشجار حتى أرواحها السرِّيَّة المتأنِّية، وتصير فروعها هشَّةً وتتشقَّق من جرَّاء وزنها، وتزرقُّ الحيوانات وتئنُّ وتموت بأعيُنٍ جاحظة وجِلد مغطَّى بالصَّقيع.

تنِّين الجليد ينفث الموت في العالم، الموت والسُّكون والبرد، لكن آدارا لا تخشاه، فهي طفلة الشِّتاء، وتنِّين الجليد سرُّها.

لقد رأته في السَّماء ألف مرَّة، وفي سِنِّ الرَّابعة رأته على الأرض.

كانت في الخارج تُواصِل بناء قلعتها الثَّلجيَّة، وجاءَ التنِّين وحطَّ بالقُرب منها في خلاء الحقول المكسوَّة بالثَّلج. فرَّت سحالي الجليد كلُّها، أمَّا آدارا فوقفَت في مكانها ببساطة، ونظرَ إليها تنِّين الجليد طيلة لحظاتٍ عشر طويلة قبل أن يُعاوِد التَّحليق في الهواء. صرخَت الرِّيح من حولها وعبرها إذ ضربَ بجناحيه ليرتفع، لكن آدارا أحسَّت بغبطةٍ عجيبة.

عادَ التنِّين في وقتٍ لاحق ذلك الشِّتاء، ولمسَته آدارا. كان جِلده في غاية البرودة، لكنها خلعَت قُفَّازها رغم ذلك، فلن يكون صواباً ألَّا تخلعه. كانت شِبه خائفة من أن يحترق التنِّين ويذوب على إثر لمستها، لكن ذلك لم يَحدُث. علمَت آدارا بشكلٍ ما أنه أكثر حساسيَّةً

للحرارة من سحالي الجليد نفسها، لكنها متميِّزة، طفلة الشِّتاء، باردة. وهكذا ملَّست عليه، وفي النِّهاية طبعَت على جناحه قُبلةً آلَمت شفتيها.

كان هذا شتاء عيد مولدها الرَّابع، العام الذي لمسَت فيه تنِّين الجليد.

الفصل الثّالث

اشتداد البرد

كان شتاء عيد مولدها الخامس هو العام الذي ركبَته فيه للمرَّة الأولى.

وجدَها ثانيةً في أثناء عملها على قلعةٍ مختلفة في بُقعةٍ مختلفة من الحقول، وكالمعتاد كانت وحدها. شاهدَته يأتي، ولَمَّا حطَّ ركضَت نحوه وضمَّت نفسها إليه. كان هذا بعد الصَّيف الذي سمعَت فيه كلام أبيها لهال.

وقفا معاً دقائق طويلة، إلى أن تذكَّرت آدارا هال، فمدَّت يدها الصَّغيرة وشدَّت جناح التنِّين، وضربَ التنِّين بجناحيه العظيمَيْن مرَّةً، ثم مدَّهما وبسطَهما على الثَّلج، وتسلَّقت آدارا ولفَّت ذراعيها حول عُنقه الأبيض البارد.

ومعاً للمرَّة الأولى حلَّقا.

لم يكن معها سرج أو سوط مثل راكبي تنانين الملك. من حينٍ إلى آخَر كان خفقان الجناحين يُهدِّد باقتلاعها من حيث تتشبَّث،

وتغلغلَت برودة بدن التنِّين في ثيابها ونهشَت جسدها الصَّغير وبثَّت فيه الخدر، لكن آدارا لم تَشعُر بالخوف.

طارا فوق مزرعة أبيها، ورأت جف يبدو ضئيلاً للغاية بالأسفل، وقد بدا مذعوراً خائفاً، وأدركَت أنه لا يراها. جعلَها المنظر تُطلِق ضحكةً جليديَّةً رنَّانةً، ضحكةً صافيةً جافَّةً كهواء الشِّتاء.

طارا فوق الخان عند مفترَق الطُّرق، حيث خرجَ النَّاس واحتشدوا لمشاهدتهما.

طارا فوق الغابة ببياضها واخضرارها وصمتها.

صارا عالياً في السَّماء، عالياً للغاية لدرجة أن آدارا لم تَعُد ترى الأرض أسفلها، وخُيِّلَ إليها أنها لمحَت تنِّين جليدٍ آخَر على مبعدةٍ شديدة، وإن لم يكن بنصف مهابة تنِّينها.

طارا أكثر النَّهار، وأخيراً دارَ التنِّين في حلقةٍ عظيمة ثم بدأ ينحدِر منزلقاً على جناحيه اليابسيْن اللَّامعيْن، وتركَها تنزل في الحقل الذي وجدَها فيه بعد حلول الغسق مباشرةً.

وجدَها أبوها هناك، وبكى لرؤيتها، واحتضنَها بشدَّةٍ مدهشة. لم تفهم آدارا السَّبب، ولا لماذا ضربَها بعد العودة بها إلى المنزل، لكن بعد خلودها وجف إلى النَّوم سمعَت أخاها ينهض من فِراشه ويتحرَّك نحو فِراشها، ويقول: «فاتَكِ كلُّ شيء. كان هناك تنِّين جليد أخافَ الجميع. لقد خشيَ أبي أنه أكلَكِ».

وابتسمَت آدارا لنفسها في الظَّلام، لكنها لم تقل شيئاً.

طارَت على متن تنِّين الجليد أربع مرَّاتٍ أخرى ذلك الشِّتاء وكلَّ شتاءٍ تلاه. كلَّ عامٍ تطير مسافاتٍ أبعد ومرَّاتٍ أكثر من العام السَّابق، وتتكرَّر رؤية تنِّين الجليد في السَّماء فوق مزرعتهم.

ويأتي كلُّ شتاءٍ أطول وأقسى برودةً من سابقه.

وكلَّ عامٍ يتأخَّر الذَّوبان أكثر.

وأحياناً تكون هناك رُقع متجلِّدة من الأرض اتَّخذها التنِّين مكاناً للاستراحة، ولا تذوب تماماً أبداً.

خلال عامها السَّادس تردَّد كلام كثير في القرية، وأُرسِلَت رسالة إلى الملك، لكن ردّاً لم يأتِ قَطُّ.

عندما زارَ هال المزرعة في ذلك الصَّيف قال: «مسألة سيِّئة تنانين الجليد تلك. إنها ليست كالتَّنانين الحقيقيَّة، لا يُمكنكِ أن تُخضِعها لسيطرتك وتُدرِّبها. إن عندنا حكاياتٍ عمَّن حاولوا ذلك وعُثِرَ عليهم متجمِّدين ممسكين بالسَّوط والسَّرج، وسمعتُ عن أناسٍ فقدوا أيديَ أو أصابع لمجرَّد لمس واحدٍ منها. قضمة الصَّقيع. نعم، مسألة سيِّئة».

قال أبوها: «لِمَ لا يفعل الملك شيئاً إذن؟ لقد أرسلنا رسالةً. ما لم نَقتُل ذلك الوحش أو ندفعه إلى الفرار ففي غضون عامٍ أو اثنين لن يكون هناك موسم زراعة على الإطلاق».

ابتسمَ هال بتجهُّمٍ مجيباً: «الملك عنده هموم أخرى. الحرب تمضي في غير صالحنا. إنهم يتقدَّمون كلَّ صيف، ومعهم ضِعف عدد

راكبي التَّنانين. الحقيقة يا جون أن الأوضاع سيِّئة هناك. سيأتي عام ما ولن أعود. الملك لا يستطيع الاستغناء عن رجالٍ يذهبون لمطاردة تنِّين جليد»، وضحكَ مضيفاً: «ثم أنني لا أحسبُ أن أحداً نجحَ في قتل أحد تلك الأشياء من قبل. ربما علينا أن نَترُك العدوَّ يستولي على هذا الإقليم بأكمله. عندئذٍ سيكون تنِّينه هو».

فكَّرت آدارا إذ أصغَت أنه لن يكون كذلك أبداً. أيّاً كان الملك الذي يَحكُم البلاد فسيكون تنِّين الجليد دائماً تنِّينها هي.

الفصل الرَّابع

نيران في الشَّمال

رحلَ هال، وبلغَ الصَّيف ذروته ثم بدأ ينسحب، وراحَت آدارا تعدُّ الأيام حتى عيد مولدها. مرَّ هال عليهم من جديدٍ قبل بداية البرد، آخذاً تنِّينه القبيح إلى الجنوب لقضاء الشِّتاء. على أن سِربه بدا أصغر حين حلَّق فوق الغابة في الخريف، ودامَت زيارته فترةً أقصر من المعتاد، وانتهَت بشجارٍ صاخب بينه وبين أبيها.

قال هال: «لن يتحرَّكوا خلال الشِّتاء. تضاريس الأرض خدَّاعة للغاية في الشِّتاء، ولن يُجازِفوا بالتَّقدُّم من دون راكبي تنانين يُغطُّونهم من أعلى. ولكن ما أن يحلَّ الرَّبيع فلن نقوى على صدِّهم، وقد لا يُحاوِل الملك أن يصدَّهم من الأصل. بع المزرعة الآن والفُرصة سانحة للحصول على مبلغٍ جيِّد. يُمكنك أن تشتري قطعة أرضٍ أخرى في الجنوب».

ردَّ أبوها: «هذه أرضي، وأرضك أيضاً، ولو أنك نسيت هذا على ما يبدو. والدانا مدفونان هنا، وبِث كذلك. أريدُ أن أُدفَن إلى جوارها حين أرحلُ».

قال هال بغضب: «ستُعجِّل برحيلك هذا كثيراً إذا لم تُصغِ إليَّ. لا تكن غبيّاً يا جون. أعلمُ ما تعنيه لك الأرض، لكنها لا تستأهل حياتك». تكلَّم هال وتكلَّم، لكن أباها لم يتزحزَح، وانتهَت الأمسية بتبادُلهما السِّباب، وغادرَ هال في جوف اللَّيل صافقاً الباب وراءه.

وإذ أصغَت آدارا إلى كلامهما اتَّخذت قراراً. لا يهمُّ ما يفعله أبوها أو لا يفعله، أمَّا هي فباقية. إذا انتقلَت فلن يعرف تنِّين الجليد أين يجدها حين يحلُّ الشِّتاء، وإذا توغَّلت بعيداً في الجنوب فلن يستطيع المجيء إليها أبداً.

لكنه أتاها بعد عيد مولدها السَّابع مباشرةً. كان أبرد شتاءٍ على الإطلاق، وخلاله حلَّقت كثيراً جدّاً وقطعَت مسافاتٍ شاسعةً جدّاً حتى أنها قلَّما وجدَت وقتاً للعمل على قلعتها الثَّلجيَّة.

عادَ هال في الرَّبيع بسِربٍ يضمُّ دزينة لا أكثر من التَّنانين، ودون أن يجلب هدايا هذا العام. تشاجرَ وأباها ثانيةً، واهتاجَ هال واستعطفَ وهدَّد، لكن أباها ظلَّ ثابتاً كالحجر، وفي النِّهاية رحلَ هال إلى ساحات القتال.

كان هذا هو العام الذي انشقَّت فيه صفوف الملك في الشَّمال، قُرب بلدةٍ ما لها اسم طويل لا تستطيع آدارا أن تنطقه.

سمعَت تِري الخبر أولاً، وذات ليلةٍ عادَت من الخان محتقنة الوجه من فرط الإثارة، وقالت لهم: «مرَّ بنا رسول في طريقه إلى الملك. العدوُّ ربحَ معركةً عظيمةً. الرَّسول سيَطلُب إمدادات، يقول إن جيشنا ينسحب».

قطَّب أبوهم وجهه، وجعَّدت خطوط القلق جبينه إذ سألَ: «هل ذكرَ شيئاً عن راكبي تنانين الملك؟». شجار أو لا شجار، هال من لحمه ودمه.

أجابَت تِري: «سألته. قال إن راكبي التَّنانين يَحرُسون المؤخِّرة، عملهم أن يشنُّوا الغارات ويحرقوا، كي يُعطِّلوا العدوَّ فيما ينسحب جيشنا بأمان. أوه، آملُ أن العمَّ هال بخير!».

قال جف: «هال سيُريهم، هو وبريمستون سيحرقانهم جميعاً».

ابتسمَ أبوهم قائلاً: «هال يستطيع العناية بنفسه دوماً. على كلِّ حالٍ ليس هناك ما نستطيع أن نفعله. تِري، إذا مرَّ المزيد من رُسل الملك فسَليهم عن الأخبار».

أومأَت برأسها دون أن ينجح قلقها في إخفاء حماستها بالكامل، فالمسألة كلُّها مثيرة للغاية.

خلال الأسابيع التَّالية خبَت الإثارة وقد بدأ أهل المنطقة يستوعبون فداحة الكارثة. ازدحمَ طريق الملك العمومي بالعابرين أكثر فأكثر، تتدفَّق الحركة كلُّها من الشَّمال إلى الجنوب، ويرتدي المُسافرون أجمعهم الأخضر والذَّهبي. في البداية كان الجنود يسيرون في طوابير منضبطة، يقودهم ضُبَّاط يعتمرون خوذاتٍ ذهبيَّة، لكن حتى حينها لم يكن في منظرهم ما يُبهِر. بإرهاقٍ تقدَّمت الطَّوابير، وبدَت الأزياء العسكريَّة ممزَّقةً متَّسخةً، والسُّيوف والرِّماح والفؤوس التي يحملها الجنود مثلومة وكثير منها ملوَّث. بعض الرِّجال فقدَ أسلحته، وساروا مترنِّحين خوالي الوفاض بغير هدى.

أمَّا قوافل الجرحى التي تبعَت الطَّوابير فكانت في أغلب الأحيان أطول من الطَّوابير نفسها.

وقفَت آدارا فوق العُشب على جانب الطَّريق تُشاهِدهم يمرُّون. رأت رجلاً بلا عينين يسند رجلاً بساقٍ واحدة ويمضيان معاً. ورأت رجالاً بلا سيقان، أو بلا أذرُع، أو بلا هذه وتلك. ورأت رجلاً شجَّت رأسه فأس، ورجالاً كثيرين يُغطِّيهم الدَّم المتخثِّر والأوساخ، رجالاً يئنُّون بصوتٍ خفيض في أجوافهم وهُم يسيرون. وشمَّت روائح رجالٍ أجسادهم متورِّمة مخضرَّة على نحوٍ شنيع، وقد ماتَ أحدهم وتركَه الآخَرون على جانب الطَّريق، فأخبرَت آدارا أباها، الذي خرجَ مع عددٍ من رجال القرية ودفنوه.

أمَّا من رأتهم آدارا أكثر من سواهم فالرِّجال المحروقون. في كلِّ طابورٍ يمرُّ كانوا بالعشرات، رجال جلودهم مسودَّة محترقة تتساقَط، منهم من فقدَ ذراعه أو ساقه أو نصف وجهه في لفحةٍ من نار التَّنانين.

أخبرَتهم تِري بما قاله الضُّبَّاط عندما توقَّفوا عند الخان ليشربوا أو يستريحوا، إن في حوزة العدوِّ تنانين كثيرةً جدّاً.

الفصل الخامس

الرَّماد

طيلة شهرٍ تقريباً تدفَّقت طوابير الجنود مارَّةً بهم بأعدادٍ تزداد كلَّ يوم. حتى العجوز لورا نفسها أقرَّت بأنها لم ترَ قَطُّ حركةً بهذه الكثافة على الطَّريق. بين الحين والآخَر يركب رسول وحيد ضد التيَّار مهرولاً إلى الشَّمال، لكنه يكون بمفرده دائماً.

وبعد فترةٍ أدركَ الجميع أنّ لا إمدادات ستأتي.

نصحَ ضابط في أحد الطَّوابير الأخيرة أهل المنطقة بأن يحزموا ما يستطيعون حمله ويتَّجهوا جنوباً، وقال منذراً: «إنهم قادمون». أصغى بعضهم إليه، وبالفعل طوال أسبوعٍ امتلأ الطَّريق بالنَّازحين من بلداتٍ أبعد في الشَّمال، وحكى عدد منهم قصصاً مروِّعةً، ولمَّا غادَروا ذهبَ المزيد من السُّكَّان المحليِّين معهم.

لكن أكثرهم بقيَ. إنهم أناس مثل أبيها، والأرض في دمائهم.

آخِر قوَّةٍ منظَّمة تمرُّ على الطَّريق كانت فرقة فُرسان في حالةٍ مزرية، رجالها ناحلون كالهياكل العظميَّة ويمتطون خيولاً جلودها

مشدودة عن آخرها على ضلوعها. مرُّوا هادرين في اللَّيل، خيولهم جائشة تتصبَّب عرقاً. الوحيد الذي توقَّف منهم كان ضابطاً شابّاً ممتقع الوجه شدَّ عنان حصانه وتمهَّل فترةً وجيزةً صائحاً: «اذهبوا، اذهبوا. إنهم يحرقون كلَّ شيء!»، ثم اندفعَ يلحق برجاله.

الجنود القلائل الذين أتوا بعد ذلك كانوا فُرادى أو في مجموعاتٍ صغيرة، ولم يتَّبعوا الطَّريق دوماً، ولم يدفعوا ثمن ما أخذوه من أشياء.

وبعدها لم يأتِ أحد، وصارَ الطَّريق مهجوراً تماماً.

زعمَ صاحِب الخان أنه شمَّ رماداً في الهواء عندما هبَّت الرِّياح من الشَّمال، ثم أخذَ أسرته وشدَّ الرِّحال إلى الجنوب. أصابَ تِري الفزع، وألمَّ بجف التَّوتُّر واتَّسعت عيناه، ولو أن خوفه كان محدوداً. ألقى ألف سؤالٍ عن العدوِّ، وتمرَّن على القتال كالمُحاربين. أمَّا أبوهم فقد واصلَ أعماله بالانشغال المعهود. حرب أو لا حرب، إن عنده محاصيل في الحقل. على أن ابتساماته قلَّت عن المعتاد، وبدأ يشرب، وكثيراً ما رأته آدارا يرفع عينيه إلى السَّماء فيما يعمل.

تجوَّلت آدارا في الحقول وحدها، ولعبَت بمفردها في حرارة الصَّيف الرَّطبة، وحاولَت التَّفكير في مكانٍ تختبئ فيه إذا حاولَ أبوها أن يأخذهم ويرحل.

في النِّهاية أتى راكبو تنانين الملك، ومعهم أتى هال.

كانوا أربعةً فقط. رأت آدارا أولهم فذهبَت تُخبِر أباها، الذي وضعَ يده على كتفها ومعاً شاهداه يمرُّ. كان تنِّيناً أخضر واحداً، في مظهره شيء ما رثٌّ، ولم يتوقَّف عندهم.

وبعد يومين ظهرَت ثلاثة تنانين محلِّقة معاً، وفصلَ أحدها نفسه عن المجموعة ودارَ منحدراً نحو مزرعتهم في حين اتَّجه الآخَران جنوباً.

بدا العمُّ هال مهزولاً متجهِّماً شاحب الوجه، وبدا تنِّينه مريضاً؛ عيناه دامعتان وجزء من أحد جناحيه محروق، ولذا كان يطير بطريقةٍ خرقاء ثقيلة، وبصعوبةٍ بالغة.

سألَ هال أخاه أمام أولاده الثَّلاثة: «هل سترحل الآن؟».

- «لا. لا شيء تغيَّر».

سبَّ هال ولعنَ، ثم قال: «سيكونون هنا في غضون ثلاثة أيام، وقد يصل راكبو تنانينهم قبلها».

قالت تِري: «أبي، أنا خائفة».

نظرَ إليها، ورأى خوفها وتردُّد، وأخيراً عادَ يلتفت إلى أخيه قائلاً: «أنا باقٍ، لكنني أريدك أن تأخذ الأطفال إذا سمحت».

هذه المرَّة كان هال هو من صمتَ وفكَّر لحظةً، ثم هزَّ رأسه، وقال: «لا أستطيعُ يا جون. كنتُ لآخذهم عن طيب خاطرٍ وبكلِّ سرورٍ لو كان ذلك ممكناً، لكنه ليس ممكناً. بريمستون جريح وبالكاد يقوى على حملي. إذا حمَّلتُ عليه وزناً إضافيّاً فربما لا نصل أبداً».

وانفجرَت تِري في البكاء.

خاطبَها هال قائلاً: «أنا آسفٌ يا حبيبتي، آسفٌ حقّاً»، وكوَّر قبضتيه بعجز.

قال أبوهم: «تِري تكاد تَبلُغ. إن كان وزنها ثقيلاً فخُذ واحداً من الآخَريْن».

نظرَ الأخ إلى أخيه وفي أعيُنهما اليأس، وارتجفَ هال، وأخيراً قال: «آدارا. إنها صغيرة الحجم وخفيفة»، وأرغمَ نفسه على الابتسام مردفاً: «لا وزن لها تقريباً. سآخذُ آدارا، وليستقلَّ بقيَّتكم الخيول أو عربةً، أو ارحلوا سيراً على الأقدام، المهمُّ أن ترحلوا».

ردَّ أبوهم بغموض: «سنرى. خُذ أنت آدارا وحافظ على سلامتها من أجلنا».

قال هال: «نعم»، والتفتَ وابتسمَ لها قائلاً: «هلمِّي يا صغيرتي. العمُّ هال سيأخذكِ لركوب بريمستون».

رمقَته آدارا بمنتهى الجدِّيَّة، وقالت: «لا»، ودارَت وخرجَت من الباب وانطلقَت تجري.

طارَدوها بالطَّبع، هال وأبوها وحتى جف، لكن أباها ضيَّع وقتاً بوقوفه في المدخل والصِّياح عليها أن ترجع، ولمَّا بدأ يجري كان ثقيل الحركة تعوزه الرَّشاقة، في حين أن آدارا صغيرة الحجم بالفعل وخفيفة وسريعة الحركة. ظلَّ هال وجف وراءها فترةً أطول، لكن هال ضعيف، وسرعان ما أصابَ جف الإعياء، وإن ركضَ في أعقابها بأقصى سرعته لدقائق قليلة، وحين بلغَت آدارا أقرب حقل قمح كان ثلاثتهم وراءها بمسافةٍ طويلة. لم يمضِ وقت طويل قبل أن تختفي وسط السَّنابل، وراحوا يبحثون عنها ساعاتٍ بلا طائل، فيما شقَّت هي طريقها بحذرٍ نحو الغابة.

مع حلول الغسق أحضروا المصابيح والمشاعل وواصلوا البحث، وبين الحين والآخَر سمعَت آدارا أباها يزعق بغضبٍ أو هال يُناديها. ظلَّت بالأعلى وسط فروع شجرة السَّنديان التي تسلَّقتها، وابتسمَت لمَّا رأت أضواءهم تُمشِّط الحقول جيئةً وذهاباً.

وفي النِّهاية غابَت في النَّوم حالمةً بمجيء الشِّتاء ومتسائلةً كيف ستعيش حتى عيد مولدها، فما زالَ يفصلها عنه وقت طويل.

الفصل السّادس

الفرار من النَّار

أيقظَها الفَجر، الفَجر وضوضاء في السَّماء.

تثاءبَت آدارا وفتحَت عينيها وأغمضَتهما، وسمعَت الضَّوضاء ثانيةً، فتسلَّقت إلى أعلى فروع الشَّجرة، عالياً قدر احتماله إياها، وأزاحَت الأوراق.

وكانت في السَّماء تنانين.

لم ترَ آدارا وحوشاً كهذه من قبل قَطُّ. حراشفها داكنة قاتمة وليست خضراء كالتنِّين الذي يركبه هال؛ أحدها له لون الصَّدأ، والثَّاني لون الدِّماء الجافَّة، والثَّالث أسود كالفحم، وكلٌّ منها عيناه كجمرتين متَّقدتين، والبُخار يَخرُج من طاقات أنوفها، وقد راحَت ذيولها تضرب جيئةً وذهاباً فيما تشقُّ أجنحتها الجِلديَّة الدَّاكنة الهواء. فتحَ التنِّين ذو لون الصَّدأ فمه وزأرَ، وارتجَّت الغابة لتحدِّيه، وحتى فرع الشَّجرة الذي يحمل آدارا اهتزَّ بعض الشَّيء. أصدرَ التنِّين الأسود ضجيجاً أيضاً، وحين فتحَ فمه انطلقَت منه حربة من اللَّهب الأزرق والبرتقالي ومسَّت الأشجار بالأسفل، لتَذبُل

الأوراق وتتفحَّم ويبدأ الدُّخان يتصاعَد من حيث سقطَت أنفاس التنِّين. حلَّق التنِّين ذو اللَّون الدَّموي على مقربةٍ فوقها، وسمعَت آدارا صرير جناحيه المشدودَين، ورأت فاه نصف مفتوح، وبين أسنانه المصفرَّة رأت السِّناج والخَبَث، وكانت الرِّيح التي حرَّكها مروره ناراً تلفح ورملاً يَخِز، ريحاً عاتيةً حكَّت جِلدها وآلَمته، ودفعَتها إلى الانكماش على نفسها.

على أظهُر التَّنانين ركبَ رجال يحملون السِّياط والرِّماح ويرتدون أزياء عسكريَّةً تتألَّف من الأسود والبرتقالي، وقد اختفَت وجوههم تحت خوذاتهم الدَّاكنة. أشارَ راكب التنِّين ذي لون الصَّدأ برُمحه نحو مباني المزرعة عبر الحقول، فنظرَت آدارا.

ورأت هال الذي خرجَ يُواجِههم.

يُضاهي تنِّينه الأخضر تنانينهم حجماً، لكنه بدا لآدارا أصغر بشكلٍ ما إذ شاهدَته يُحلِّق إلى أعلى من المزرعة، وقد بسطَ جناحيه عن آخِرهما فظهرَت جروحه البليغة بوضوح. كان طرف جناحه الأيمن متفحِّماً، وهو ما جعلَه يميل بشدَّةٍ في أثناء طيرانه، وعلى متنه بدا هال كواحدٍ من جنود اللُّعبة بالغي الصِّغر الذين جلبَهم لهم كهديَّةٍ قبل سنوات.

انفصلَ راكبو تنانين العدوِّ يُهاجِمونه من ثلاث نواحٍ، ورأى هال ما يفعلونه، فحاولَ أن يدور وينقضَّ على التنِّين الأسود مباشرةً ويفرَّ من الاثنين الآخَرين. ضربَ بسوطه بغضبٍ ويأس، وفتحَ تنِّينه الأخضر فمه وزأرَ بالتَّحدِّي، لكن لسان اللَّهب الذي

انبعثَ منه كان باهتاً قصيراً، ولم يُصِب العدوَّ. أحجمَ الآخَران عن إطلاق النَّار، ثم -بإشارةٍ واحدة- نفثَت تنانينهم نيرانها في آنٍ واحد، وابتلعَ اللَّهب هال.

أطلقَ تنِّينه ضجيجاً صاخباً كالعويل، ورأته آدارا يحترق. كان يحترق، الاثنان يحترقان، الوحش وسيِّده كلاهما، وبقوَّةٍ هويا أرضاً وانطرَحا وسط قمح أبيها يتصاعَد منهما الدُّخان.

وامتلأَ الهواء بالرَّماد.

أدارَت رأسها في الاتِّجاه الآخَر، ورأت عموداً من الدُّخان يرتفع من وراء الغابة والنَّهر، من المزرعة التي تعيش فيها العجوز لورا مع أحفادها وأطفالهم.

ولَمَّا عادَت تَنظُر رأت التَّنانين تدور هابطةً نحو مزرعتها هي، ثم أنها حطَّت واحداً تلو الآخَر، وشاهدَت آدارا أول الرَّاكبين يترجَّل ويمشي مختالاً صوب باب منزلهم.

كانت مذعورةً مرتبكةً، ورغم كلِّ شيءٍ طفلةً في السَّابعة، وقد أرهقَ كاهلها هواء الصَّيف الثَّقيل وأفعمَها بالعجز وعزَّز مخاوفها كلَّها. وهكذا أقدمَت على التَّصرُّف الوحيد الذي تعرفه، وبلا تفكير، الشَّيء الذي تفعله بطبيعتها. نزلَت آدارا من فوق الشَّجرة وانطلقَت تجري. جرَت تقطع الحقول وتَعبُر الغابة، بعيداً عن المزرعة وأسرتها والتَّنانين، بعيداً عن كلِّ شيء. في اتِّجاه النَّهر جرَت حتى راحت قدماها تنبضان ألَماً، إلى أبرد مكانٍ تعرفه، إلى الكهوف العميقة أسفل جروف النَّهر، إلى الملاذ البارد والظُّلمة والأمان.

وهناك في البرد اختبأَت. آدارا طفلة الشِّتاء، والبرد لا يُزعِجها، وعلى الرغم من هذا ارتجفَت.

استحالَ النَّهار إلى ليل، لكن آدارا لم تبرح كهفها.

حاولَت أن تنام، لكن أحلامها امتلأَت بالتَّنانين المحترقة.

تكوَّرت على نفسها بشدَّةٍ إذ رقدَت في الظَّلام، وحاولَت أن تُحصي الأيام المتبقِّية حتى عيد مولدها، وكانت الكهوف فاترة الحرارة تماماً حتى أنه كان بإمكان آدارا تخيُّل أن الوقت ليس صيفاً إطلاقاً، أنه الشِّتاء أو قُرب الشِّتاء. عمَّا قريب سيأتيها تنِّينها تنِّين الجليد، وستركب على ظَهره إلى أرض الشِّتاء الدَّائم، حيث تقف قلاع عظيمة من الجليد وصروح مهيبة من الثَّلج إلى الأبد في حقولٍ لا نهائيَّة من الأبيض، وحيث يسود الصَّمت والسُّكون.

أحسَّت في رقدتها كأنه الشِّتاء بالفعل، وبدا لها أن برودة الكهف تزداد باطِّراد، وهو ما أشعرَها بالأمان. غفَت مدَّةً قصيرةً، وعندما استيقظَت كانت البرودة قد اشتدَّت أكثر، وقد غطَّت جُدران الكهف طبقة من الصَّقيع، ووجدَت آدارا نفسها جالسةً على فِراشٍ من الجليد. وثبَت ناهضةً ورفعَت عينيها إلى مدخل الكهف المليء بضوء الفَجر الخافت، وملَّست عليها رياح باردة، غير أنها تهبُّ من الخارج، من عالم الصَّيف، وليس من أعماق الكهف على الإطلاق.

صدرَت من آدارا صيحة فرحة قصيرة، وتسلَّقت الصُّخور المكسوَّة بالجليد.

وبالخارج كان تنِّين الجليد في انتظارها.

كان قد أطلقَ أنفاسه على الماء ليتجمَّد النَّهر، أو جزء منه على الأقل، ولو أن من الجليّ أن الجليد يذوب بسرعةٍ بالفعل مع شروق شمس الصَّيف. وكان قد أطلقَ أنفاسه على الكلأ الأخضر الذي ينمو على الضِّفاف، كلأ يُناهِز آدارا طولاً، لكن أوراقه الطَّويلة بيض هشَّة الآن، وحين حرَّك تنِّين الجليد جناحيه انقسمَت الأوراق أنصافاً وسقطَت مجزوزةً، تماماً كأنما قطعَها مِنجل.

لاقَت عينا التنِّين الجليديَّتان عينَي آدارا، فجرَت إليه وتسلَّقت جناحه ولفَّت ذراعيها حوله. كانت تعلم أن عليها أن تُسرِع، فحجم تنِّين الجليد يبدو أصغر من أيّة مرَّةٍ رأته فيها، وقد جعلَها هذا تُدرِك ما تفعله به حرارة الصَّيف.

همسَت: «أسرِع أيها التنِّين. خُذني بعيداً، خُذني إلى أرض الشِّتاء الدَّائم. لن نعود إلى هنا أبداً أبداً. سأبني لك أفضل القلاع كافَّةً وأعتني بك وأمتطيك كلَّ يوم. فقط خُذني من هنا أيها التنِّين، خُذني معك إلى الدِّيار».

سمعَها تنِّين الجليد وفهمَها، وانبسطَ جناحاه العريضان شِبه الشفَّافيْن وضربا الهواء، وعوَت ريح قُطبيَّة قارسة في أرجاء حقول الصَّيف.

وارتفعا، بعيداً عن الكهف، بعيداً عن النَّهر، فوق الغابة، إلى أعلى وأعلى. دارَ تنِّين الجليد نحو الشَّمال، ولمحَت آدارا مزرعة أبيها، وإن رأتها ضئيلةً للغاية وتزداد ضآلةً، ثم أدارا ظَهريهما إليها وحلَّقا في الأعالي.

ثم أنّ صوتاً ترامى إلى مسامع آدارا، صوتاً مستحيلاً، صوتاً أبعد وأكثر خفوتاً من أن تسمعه أبداً، خصوصاً مع ضربات جناحَي تنِّين الجليد، لكنها سمعَته رغم كلِّ ذلك، سمعَت أباها يَصرُخ.

وجرَت الدُّموع الحارَّة على وجنتيها، وحيث سقطَت على ظَهر التنِّين صنعَت ثقوباً صغيرةً في الصَّقيع. فجأةً شعرَت بالبرد تحت يديها أليماً، ولَمَّا سحبَت يدها رأت العلامة التي تركَتها على عُنق التنِّين. كانت خائفةً، لكنها ظلَّت متشبِّثةً به، وهمسَت له: «عُد. أرجوك أيها التنِّين، أعِدني».

لم تكن ترى عينَي التنِّين، إلَّا أنها علمَت كيف ستبدوان. انفتحَ فمه وانطلقَ منه عمود أبيض ضارب إلى الزُّرقة، شريط طويل بارد علقَ في الهواء، لكن صوتاً لم يَخرُج منه، فتنانين الجليد مخلوقات صامتة، وإن سمعَت آدارا في عقلها صرخة لوعته الضَّارية.

ومرَّةً أخرى همسَت بصوتٍ ضئيل رفيع: «أرجوك، ساعِدني».

ودارَ تنِّين الجليد.

الفصل السّابع

الغضبة الباردة

كانت التَّنانين الدَّاكنة الثَّلاثة خارج الحظيرة عندما عادَت آدارا، تلتهم وليمةً من لحم ماشية أبيها المحترقة المتفحِّمة، وقد وقفَ أحد الرَّاكبين بالقُرب منها مستنداً إلى رُمحه ويخز به تنِّينه بين الحين والآخَر.

رفعَ ناظرَيه حين هبَّت الرِّيح الباردة صارخةً عبر العقول، وصاحَ بشيءٍ ما وهرعَ إلى التنِّين الأسود، فقضمَ الوحش كُتلةً أخيرةً من لحم حصان أبيها وابتلعَها، ثم وثبَ على مضضٍ في الهواء، وراحَ الرَّاكب يضرب بسوطه.

رأت آدارا باب منزل المزرعة ينفتِح بعُنف، واندفعَ الرَّاكبان الآخَران إلى الخارج وأسرعا إلى تنِّينيهما.

زأرَ التنِّين الأسود، وارتفعَت نحوهما ناره المستعرة. شعرَت آدارا بالحرارة اللَّافحة، وسرَت القشعريرة في تنِّين الجليد إذ داعبَ اللَّهب بطنه، ثم أنّه أدارَ عُنقه الطَّويل وثبَّت عينيه الخاويتين المتوعِّدتين على العدوِّ، وفتحَ فكَّيه المطوَّقيْن بالصَّقيع، ومن بين أسنانه الجليديَّة تدفَّقت أنفاسه الشَّاحبة الباردة.

مسَّ نفْث تنِّين الجليد الجناح الأيسر للتنِّين الأسود كالفحم تحتهما، وأطلقَ الوحش القاتم صرخة ألمٍ حادَّةً، ولمَّا خفقَ جناحاه انكسرَ الجناح المغطَّى بالصَّقيع إلى نصفين، وبدأ التنِّين وراكبه يهويان.

وعادَ تنِّين الجليد ينفث البرد.

وتجمَّد العدوَّان وماتا قبل أن يصطدما بالأرض.

كان التنِّين ذو لون الصَّدأ يطير في اتِّجاههما، ومعه التنِّين ذو اللَّون الدَّموي براكبه عاري الصَّدر. صكَّ زئيرهما الغاضب سمع آدارا، وشعرَت بحرارة أنفاسهما تُحيط بها، ورأت الهواء يتموَّج ملتمعاً من فرط السُّخونة، وشمَّت رائحة الكبريت الكريهة.

في السَّماء تقاطعَ سيفان طويلان من نار، لكنهما لم يمسَّا تنِّين الجليد، وإن انكمشَ بفعل الحرارة وتطايرَت منه قطرات الماء كالمطر كلَّما خفقَ جناحاه.

دنا التنِّين ذو اللَّون الدَّموي منهما بشدَّة، ولفحَت أنفاس تنِّين الجليد الرَّاكب، وأمام عينَي آدارا ازرقَّ صدره العاري وتكثَّفت الرُّطوبة عليه في لحظة وكسَته بالصَّقيع. صرخَ الرَّجل، وماتَ، وسقطَ من فوق تنِّينه، وإن ظلَّ سَرجه في مكانه متجلِّداً على عُنق التنِّين. ثم انقضَّ تنِّين الجليد على تنِّين النَّار، يَصرُخ جناحاه بأغنية الشِّتاء السرِّيَّة، ولاقَت دفقةٌ من اللَّهب دفقةً من البرد، وارتعدَ تنِّين الجليد مرَّةً أخرى والتوى مبتعداً والماء يَقطُر منه، أمَّا التنِّين الآخَر فقد ماتَ.

لكن راكب التنِّين الأخير كان وراءهما الآن، العدوَّ في درعه الكاملة على متن تنِّينٍ حراشفه بُنِّيَّة كلون الصَّدأ. صرخَت آدارا، وفي الأوان نفسه غلَّفت النَّار جناح تنِّين الجليد. استغرقَ الحريق أقلَّ من لحظة، لكنه أخذَ الجناح معه، أذابَه، دمَّره.

ضربَ الجناح المتبقِّي لتنِّين الجليد الهواء بضراوةٍ ليُبطئ السَّقطة، لكن ارتطامه بالأرض كان عنيفاً. تهشَّمت ساقاه من تحته، وانكسرَ جناحه في موضعيْن، وطوَّح وقع الصَّدمة بآدارا من فوق ظَهره، فسقطَت على أرض الحقل الليِّنة وتدحرجَت، قبل أن تنهض بصعوبةٍ مصابةً بعدَّة كدمات، ولكن سليمةً بخلاف هذا.

والآن بدا تنِّين الجليد صغيراً للغاية، منكسراً للغاية. بتعبٍ انخفضَ عُنقه الطَّويل إلى الأرض، واستراحَ رأسه وسط سنابل القمح. وانقضَّ راكب تنِّين العدوِّ مطلقاً هدير النَّصر، عينا تنِّينه متَّقدتان، ورُمحه مسدَّد.

رفعَ تنِّين الجليد رأسه بألمٍ وأصدرَ الصَّوت الوحيد الذي سمعَته آدارا يَخرُج منه يوماً؛ صيحةً رفيعةً رهيبةً ملأى بالأسى، كالصَّوت الذي تصنعه رياح الشَّمال حين تهبُّ حول أبراج وشُرفات القلعة البيضاء، التي تقف خاليةً في أرض الشِّتاء الدَّائم.

وحين خبَت الصَّيحة نفثَ تنِّين الجليد البرد في العالم للمرَّة الأخيرة، وأطلقَ لساناً طويلاً من البرد الأبيض المزرق، لساناً مليئاً بالثُّلوج والجمود ونهاية كلِّ شيءٍ حي، وقد أصابَ راكب التنِّين مباشرةً وهو لا يزال شاهراً رُمحه وسوطه.

وشاهدَته آدارا يرتطم بالأرض.

ثم أنّها انطلقَت تجري، تجري بعيداً عن الحقول عائدةً إلى المنزل وأسرتها، تجري بأقصى سرعتها، تجري وتلهث وتبكي كفتاةٍ في السَّابعة.

لم تدرِ آدارا ماذا تفعل، لكنها وجدَت تِري التي كانت دموعها قد جفَّت، وأطلقَتا سراح جف ثم حلَّتا وثاق أبيهم، الذي داوَته تِري ونظَّفت جروحه، وحين فتحَ عينيه ورأى آدارا ابتسمَ، واحتضنَته هي بقوَّةٍ شديدة وبكَت من أجله.

مع حلول اللَّيل قال إنه يقوى كفايةً على السَّفر، فخرجوا متسلِّلين تحت جنح الظَّلام وسلكوا طريق الملك جنوباً.

حينئذٍ لم تُلقِ أسرتها عليها أسئلةً خلال ساعات الظُّلمة والخوف، ولكن لاحقاً، بعد أن صاروا آمنين في الجنوب، كانت أسئلتهم بلا نهاية، وقد أعطَتهم آدارا أفضل إجاباتٍ ممكنة، لكن أحداً منهم لم يُصدِّقها باستثناء جف، وكلَّما كبرَ أكثر لم يَعُد مقتنعاً بالأمر. إنها في السَّابعة رغم كلِّ شيء، ولا تفهم أن تنانين الجليد لا تُرى في الصَّيف أبداً، وليست قابلةً للتَّرويض أو الامتطاء.

ثم أنّهم لم يروا أيَّ تنانين جليدٍ عندما غادَروا ليلتها، بل فقط الجُثث القاتمة الضَّخمة لثلاثة تنانين حربيَّة، والجُثث الأصغر لراكبيها في ثيابهم السَّوداء والبرتقاليَّة... وبِركة لم تكن موجودةً من قبل، بِركة صغيرة ساكنة مياهها بالغة البرودة، وقد داروا من حولها بحذرٍ واتَّجهوا نحو الطَّريق.

الفصل الثَّامن

الرَّبيع

عملَ أبوهم عند مُزارعٍ آخَر طوال ثلاثة أعوامٍ في الجنوب، وقد ادَّخر ما يقدر عليه وبدا سعيداً، واعتادَ أن يقول لآدارا: «فقدتُ هال وأرضي أيضاً، وأنا حزين لهذا، لكن لا بأس، لأنني استعدتُ ابنتي».

لقد غابَ منها الشِّتاء، والآن تبتسم وتضحك، بل وتبكي كذلك كالفتيات الصَّغيرات الأخريات.

بعد ثلاثة أعوامٍ من هروبهم دحرَ جيش الملك الأعداء في معركةٍ عظيمة، وأحرقَت تنانين الملك العاصمة الأجنبيَّة، وخلال السَّلام الذي تلا هذا تبدَّلت السِّيادة على أقاليم الشَّمال مجدَّداً. استردَّت تِري روحها المرحة وتزوَّجت تاجراً شابّاً ومكثَت في الجنوب، في حين عادَ جف وآدارا مع أبيهما إلى المزرعة.

مع باكورة الصَّقيع خرجَت سحالي الجليد كلُّها كما تفعل دوماً، وشاهدَتها آدارا بابتسامةٍ على وجهها متذكِّرةً ما كان، لكنها لم تُحاوِل أن تلمسها، فهي أشياء صغيرة باردة هشَّة، ومن شأن دفء يديها أن يُؤذيها.

"أحبَّت آدارا الشتاء أكثر من سائر الفصول، فحين يحلُّ البرد على العالم يأتي تنِّين الجليد".

لطالما كانت تنانين الجليد نادرة، حتى في تلك الأيام، وحين يُرى أحدها يظلُّ الأطفال يُشيرون متعجِّبين، ويُتمتم الكبار ويهزُّون رؤوسهم، فعندما تظهر تنانين الجليد في الأنحاء فهذا نذير بشتاء طويل قارس. حين يخفق تنِّين الجليد بجناحيه تهبُّ الريح الباردة وتدور دوامات الثلج العنيفة ويبدو العالم كأنه ينكمش ويرتعش، ولمَّا يفتح فاه العظيم ويزفر فما يخرج منه ليس نارًا، فتنِّين الجليد ينفث البرد.

غير أن آدارا طفلة الشتاء، وهو صديقها الوحيد، ومعًا عليهما إنقاذ من تحبُّهم عندما تهاجم تنانين النار موطنها، ولكن فقط إذا كانت مستعدة لدفع الثمن.

في هذه القصة للكاتب الأمريكي جورج ر. ر. مارتن نرى بذور الأفكار التي طوَّرها لاحقًا في العمل الضخم الذي قدَّمه بعد ذلك للناضجين. هنا يقدِّم صاحب "أغنية الجليد والنار" قصة بسيطة ولكن حافلة بسحر وجمال كتاباته ولغته الشِّعرية، تشجِّع القرَّاء الصغار والكبار على دخول عالم الخيال من باب واحدٍ من أفضل من كتبوا فيه.

المترجم



جورج آر آر مارتن

تنِّين الجليد



9 789921 723366



منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

www.takweeen.com | Publishing@takweeen.com